بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بَعْدُ:

فهذه محاضرة بعنوان: «**تدبر القرآن وأثره في تزكية النفوس**».

ألقيت مجملها ليلة السبت ١٤٢٩/٣/١٤هـ، عبر الهاتف على إخوة من الجزائر.

وظاهر من هذا العنوان أن المحاضرة تدور على ثلاثة محاور:

المحور الأول: تدبر القرآن الكريم.

المحور الثاني: تزكية النفوس.

المحور الثالث: فوائد تزكية النفوس على العبد.

وتحت كل محور ما يتعلق به من العناصر!

وأسأل الله بأن له الحمد لا إله إلا هو، الحنان المنان، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام أن يتقبل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقني القبول في الدنيا والآخرة؛ إنه سميع مجيب.

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحور الأول

تدبر القرآن الكريم

ويشتمل على العناصر التالية:

١- معنى التدبر.

٢- الأمر بالتدبر.

٣- أركان التدبر.

٤- مقاصد القرآن والتدبر فيها.

٥- وسائل التدبر.

وبيان هذه العناصر فيما يلي:

١- معنى التدبر.

التدبر في اللغة: من الدبر، وهو آخر الشيء. دبر الدابة: آخرها. والتَّدْبِيرُ والتدبر في الأمر: النَّظَرُ في عاقِبةِ الأمر، أي: أن تنظر إلى ما تَؤُول إليه عاقبته. والتَّدَبُّر: التفكر فيه؛ أي: تَحْصِيل المَعْرِفَتَيْن لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالثة؛ فالتَّدبُّر هو التَّفَكُّر والتَّفَهُّم.

والتدبر والاعتبار: العِبْرَةُ: الاعْتِبارُ بما مضَى. والاعْتِبَارُ: هو التَّدَبُّرُ والنَّظَرُ.

فالاعتبار هو الحالةُ والهيئة النفسانية التي يُتَوَصَّلُ بها من معرفَةِ المُشَاهَد إلى ما ليس بمُشَاهَدٍ(١).

وفي **الاصطلاح**: التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر: تصرفه بالنظر في العواقب(٢).

وفي الشرع: التدبر هو النظر والتفهم والتفكر في عاقبة ما تؤول إليه الأمور التي ذكرها الله في القرآن الكريم، والاستفادة من ذلك في إيمان العبد، وظهور أثره في جوارحه.

وهذا المعنى مستخلص من تتبع معاني التدبر في الشرع.

٢- الأمر بالتدبر.

وقد جاء الأمر بالتدبر في القرآن العظيم في آيات كثيرة؛ منها:

قول الله -تبارك وتعالى-: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ) [النساء:٨٢].

---

(١) مادة (د. ب. ز) لسان العرب، القاموس المحيط، تاج العروس.

(٢) التعريفات للجرجاني (ص٧٦).

وقوله -تبارك وتعالى-: (ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ) [المؤمنون:٦٨].

وقوله -تبارك وتعالى-: (ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ) [ص:٢٩].

وقوله تعالى: (ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ) [محمد:٢٤].

قال محمد بن الحسين الآجري: «ألا ترون -رحمكم الله- إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الربﻷ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة السورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوه، ولم يكن مراده متى أختم السورة؛ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق» (١).اهـ

وليلاحظ هنا أن المقصود بالتدبر ليس مجرد العملية العقلية، أو مجرد التلاوة، بدون أن يظهر أثر ذلك في القلب بزيادة الإيمان وما يلازمه من العمل الصالح في الجوارح.

عن مجاهد في قولهﻷ: (ﭼ ﭽ ﭾ) قال: «يعملون به حق عمله»(٢).

ولذلك جاءت الآيات في القرآن مشيرة إلى ذلك كما في قوله تعالى:

وقول الله تعالى: (ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ □) [آل عمران:١٦٤].

قال تعالى: (ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ) [الأنفال:٢].

وقوله تعالى: (ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ) [التوبة:١٢٤].

وقول الله تعالى: (ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ) [الزمر:٢٣].

ولذلك قلت في تعريف التدبر شرعًا: «.........، والاستفادة من ذلك في إيمان العبد وظهور أثره في جوارحه».

وقد جاء عن السلف ذم من يقرأ القرآن ولا يتفهمه، ولا يعلم ما فيه ولا يعمل به!

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٤-٥).

(٢) أخلاق القرآن للآجري (ص٥).

ذكر القرطبي في تفسيره[١] عن أبي بكر الأنباري بسنده عن زياد بن مخراق قال: قال عبد الله بن مسعود: «إنّا صعب علينا حفظ ألفاظ القران، وسهل علينا العمل به، وان من بعدنا يسهل عليهم حفظ القران، ويصعب عليهم العمل به».

وبسنده عن ابن عمر قال: «كان الفضل من أصحاب رسول اللهﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقران، وان آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به».

وقال عبد الله بن عمر: «لقد عشنا دهرًا طويلًا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمدﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»[٢].

٣- أركان التدبر.

ومما سبق يتضح أن التدبر لابد فيه من أركان وهي:

١- التفكر والتفهم لما ذكره الله في كتابه، والنظر في عاقبة ما تؤول إليه هذه الأمور التي ذكرها الله، والاعتبار والاتعاظ بذلك؛ بحيث يُتَوَصَّلُ معرفَةِ حكم المُشَاهَد مما ليس بمُشَاهَدٍ، فيحصل بذلك الإيمان في القلب والتصديق والمعرفة، والتعظيم لأمر اللهT.

٢- حصول أثر ذلك الإيمان على الجوارح.

وبدون ذلك لن يحصل التدبر الأمثل للقرآن، فليس المقصود مجرد قراءة القرآن الكريم، فهذا وإن كان فيه خير كثير، إلا أنه ليس هو التدبر الأمثل المطلوب من المسلم.

وهذا يدل عليه ما جاء عن رسول اللهﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحهما: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.**

وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

---

(١) (٤٠/١).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٩٩/١)، سنن البيهقي الكبرى (١٢٠/٣).

ورواه أبو الفضل الرازي في كتابه فضائل القرآن (ص١٦)، وزاد: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كمثل الأترجة طيبة الطعم**»، فزاد لفظة: «**ويعمل به**»، وهي في معنى الحديث.

وأخرج الطبراني في الكبير: عَنِ القَاسِمِ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ رَيْحَانَةٍ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلا طَعْمَ لَهَا.

وَمَثَلُ الَّذِي يَعْمَلُ بِالقُرْآنِ وَلا يَقْرَؤُهُ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلا رِيحَ لَهَا.

وَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا خَبِيثٌ وَرِيحُهَا خَبِيثٌ».

٤- مقاصد القرآن والتدبر فيها.

والتدبر للقرآن الكريم فيه النظر إلى مقاصد القرآن العظيم، فهو كتاب هداية وإعجاز، تضمن ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة!

والقرآن العظيم يدور حول ثلاث قضايا أساس فيه، وهي:

أولًا: تقرير التوحيد وأمور العقيدة.

ثانيًا: تقرير الأحكام الشرعية: الحلال والحرام، والأمر والنهي.

ثالثًا: ذكر قصص الأنبياء والسابقين، وأخبار الكفار والمشركين، وأحوالهم مع رسول رب العالمين.

والمسلم في قراءته للقرآن العظيم يتفهم هذه المقاصد الكبيرة، ويستفيد مما فيها، ناظرًا ومتفكرًا ومتعظًا، وهذا سر ختم الكثير من الآيات بما يفيد طلب التفكر، والرشد، والعبرة، والعظة، والرجوع إلى الصواب.

فمن ذلك فيما يتعلق بالأحكام وبيان الحلال والحرام: قوله تعالى: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پپ پ پ پ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃچ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ژ ژڑ ڑ ک ک ک کگ گ گ گ گڳ ڳ ڳ ڳ) [البقرة:١٨٧].

وقوله تعالى: (ڃ ڃ ڃ ڃچ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ژ ژ ژڑ ک ک ک کگ گ گ گ گڳ ڳ ڳڳ ڱ ڱ ڱ ڱں) [البقرة:٢٢١].

وقوله تعالى: (ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چچ ڇ ڇ ڇ ڇڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ) [الأعراف:٢٦].

وفي أمور العقيدة وما يتعلق بها: في قوله تعالى: (ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې) [الأنعام:٦٥].

وفي قصص السابقين: قوله تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ ى ى) [الأعراف:١٣٠].

وقوله تعالى: (y ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ
□ □ □) [الأعراف:١٧٦].

وفي أخبار من كان وقت الدعوة: (ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ) [الأنفال:٥٧].

وقال تعالى: (ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [القصص:٤٣].

وقال: (ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ) [القصص:٤٦].

وعمم في القرآن جميعه؛ فقال: (ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □)
[الأنعام:٥١].

وقوله تعالى: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ) [الأنعام:٦٩].

وقال تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [طه:١١٣].

وقال تعالى: (ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ) [الزمر:٢٧].

وقال تعالى: (ﭛ □ □ □ □ □) [الدخان:٥٨].

وليلاحظ أن بعض مقاصد القرآن تأتي ممتزجة؛ فقد تأتي القصة متضمنة بيان أمرًا في العقيدة، وتشير إلى حكم شرعي، كما تراه في المسائل التي يورد الفقهاء فيها ما يسميه الأصوليون: شرع من قبلنا، فهو شرع لنا ما لم يأت في شرعنا ما يخالفه؛ لعموم قوله تعالى: (□ □ □ □ □□ □ □□ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ ﯽ ﯾ ﯿ) [الأنعام:٩٠].

٥- وسائل التدبر.

للتدبر وسائل مهمة وهي ميسرة للمسلم، فمن ذلك:

الوسيلة الأولى: قراءة القرآن العظيم، وتدارسه وفهم معانيه، وليس المقصود هنا بالفهم أن يفهمه كفهم العلماء المجتهدين، أو بمصطلحات أهل العلم، إنما الفهم الذي يحقق معنى الآية من جهة دلالتها العامة![1].

---

(١) أسوق هنا كلام الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان عند الآية ٢٤ من سورة محمد: (ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ)، باختصار وتصرف مقتصرًا على المسألة الأولى من المسائل التي أوردها تحت تفسيره للآية، لعلاقتها بهذه القضية المهمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ**:** «الهمزة في قوله: (ﮑ ﮒ) للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله: وحذف متبوع بدا هنا استبح....

وقوله تعالى: (ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ) (أم) فيه منقطعة بمعنى بل؛ فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

=

=

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: (چ چ چچ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ) [النساء:٨٢].

وقوله تعالى: (ڈ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ) [المؤمنون:٦٨].

وقوله تعالى: (ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ) [ص:٢٩].

وقد ذم -جل وعلا- المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: (ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک) [الكهف:٥٧] الآية.

وقوله تعالى: (ٻ ٻ ٻ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿٿ) [السجدة:٢٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبيﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: (ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ) [الفرقان:٣٠]. وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لابد منه للمسلمين.

وقد بين النبيﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس، كما ثبت عنهﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

وقال تعالى: (ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ) [آل عمران:٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به، وبالسنة الثابتة به وبالنسبة الثابتة المبينة له من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى، ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسولهﷺ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة، فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعًا وللأئمة رحمهم الله.

مسألة: اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا، بل الحق الذي لا شك فيه: أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما. أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا، وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح فله أن يعمل به ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا، ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

ومما يوضح ذلك: أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار ليس أحد منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلًا، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون الإصلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذن فدخول الكفار والمنافقين في

=

=

الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به.

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعًا، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة من الكتاب والسنة لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب مراقي السعود تبعًا للقرافي من قوله: من لم يكن مجتهدًا فالعمل... منه بمعنى النص مما يحظل. لا يصح على إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل.

ومن المعلوم أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ومن المعلوم أيضًا أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حث جميع الناس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله أكثر من أن تحصى، كقوله ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**»، وقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي**...» الحديث. ونحو ذلك ما لا يحصى.

فتخصيص جميع تلك النصوص، بخصوص المجتهدين وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم تحريمًا بائًا يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين. ومعلوم أن المقلد الصرف لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء.

وقال صاحب مراقي السعود، في نشر البنود في شرحه لبيته المذكور آنفًا ما نصه: يعني أن غير المتجهد يحظل له. أي: يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه، من نسخ وتقييد، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي اهـ محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أنه لا مستند له ولا للقرافي الذي تبعه في منع جميع المسلمين غير المجتهدين من العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود الناسخ، والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتى يثبت ورود المقيد، والنص يجب العمل به حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عمومًا كان أو إطلاقًا أو غيرهما حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح. كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها، وقد أوضح ابن القاسم العبادي في الآيات البينات غلطهم في ذلك في كلامه على شرح المحل لقول ابن السبكي في جمع الجوامع، ويتمسك بالعام في حياة النبي ﷺ قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافًا لابن سريج اهـ.

وعلى كل حال فظواهر النصوص من عموم وإطلاق ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه من

=

يقول الصنعاني صاحب سبل السلام: «إن من قرع سمعه قوله تعالى: (ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ) [المزمل:٢٠] يفهم معناه دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير...

فياليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيها وفهم تراكيبها ومبانيها، حتى جعلت كالمقصورات في الخيام، ولم يبق لنا إلا ترديد ألفاظها وحروفها»[1]. اهـ

ومثل هذا الفهم يحصله المسلم بمراجعة كتب التفسير المتيسرة كتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن سعدي ونحوها، وقد كان السلف على هذا.

ذكر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة تفسيره الأخبار التي رُويت في الحض على العلم بتفسير القرآن، ومن كان يفسِّره من الصَّحابة، وأورد فيه جملة من الآثار في ذلك منها:

عن ابن مسعود، قال: «كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ».

=

مخصص أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله؛ فادعاء كثير من المتأخرين أنه يجب ترك العمل به حتى يبحث عن المخصص والمقيد مثلًا خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبيﷺ ليعمل بها، تعلم ذلك النص العام، أو المطلق، وتعلم معه، مخصصه ومقيده إن كان مخصصًا أو مقيدًا، وتعلم ناسخه إن كان منسوخًا، وتعلم ذلك سهل جدًّا بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتد بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثًا فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم فعلمه ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله تعالى: (ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ) [البقرة:٢٨٢].

وقوله تعالى: (ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ) [الأنفال:٢٩]، على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: (ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ) [الحديد:٢٨] الآية.

وهذه التقوى التي دلت الآيات على أن الله يعلم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم لا تزيد على عمله بما علم من أمر الله وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم؛ فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب ولا سنة، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن حتى يحصلوا شرطًا مفقودًا في اعتقاد القائلين بذلك، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى». اهـ

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد (ص ٣٦).

عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلّموا عَشْر آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآن والعمل جميعًا»[(١)].

عن مَسْروق، قال: قال عبد الله: «والذي لا إله غيره، ما نزلتْ آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلتْ؟ وأينَ أنزلت؟ ولو أعلم مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتاب الله مِني تنالُه المطايا لأتيته».

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وفي حَثِّ اللهT عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جل ذكره لنبيهﷺ: (ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ) [ص:٢٩].

وقوله: (ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ) [الزمر:٢٧- ٢٨].

وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتّعاظ بمواعظه ما يدل على أنَّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفة من القِيل والبيان والكلام. إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به.

فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل، كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشِد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: اعتبر بما فيها من الأمثال، وادّكر بما فيها من المواعظ. إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم.

فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر، بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها؛ فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: اعتبرْ بها. إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلًا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكمَه وصُنوف عِبَره.

فإذْ كان ذلك كذلك -وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله- كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلًا، وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما

---

(١) ولفظ هذا الأثر كما في رواية أبي الفضل الرازي في كتابه فضائل القرآن (ص١٧): «إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزهن إلى العشر الآخر حتى يتعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا».

يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم -بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدمنا صفَته آنفًا- عارفون، وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسرين -من كتاب الله وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خَلقه تأويله» [١].اهـ

الوسيلة الثانية: العمل بما فيه.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: (ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ) [القلم:٤]: ما كان خلق رسول الله؟ فقالت: «كان خلقه القرآن»[٢].

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»[٣].

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حملة القرآن أو يا حملة العلم، اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقًا، يباهي بعضهم بعضًا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك، لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى» [٤].اهـ

ويروى عن الحسن البصري: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم له بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء مثل هذا ؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء» [٥].اهـ

ويذكر عن الحسن البصري قال: «أمر الناس أن يعملوا بالقرآن فاتخذوا تلاوته عملًا»[٦].

الوسيلة الثالثة: تعليمه والدعوة إليه.

وقد جاء في الحديث: «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**».

---

(١) تفسير الطبري (١/٨٠-٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٧٤٦).

(٣) صحيح البخاري (٧٢٨٢) كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٠).

(٥) سنن سعيد بن منصور (٢/٤٢٠)، شعب الإيمان للبيهقي (٢/٥٤١)، الزهد لابن المبارك (١/٢٧٤).

(٦) تفسير السمعاني (ج٤/ص ١١٩)، مدارج السالكين (١/٤٥١)، تلبيس إبليس (١٠٩).

وعن عبد الله بن عمر قال: «عليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم؛ فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظًا لمن عقل»(١).

الوسيلة الرابعة: قيام الليل به.

لأنه أكثر الأوقات مواطأة للقلب، قال تعالى: (ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ) [المزمل:٦].

والمصلي في قراءته وصلاته إنما يناجي ربه؛ عن البياضي ﭬ: أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: «**إن المصلي يناجي ربهTفلينظر ما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»(٢).

عن عبد الله بن المبارك قال: «سألت سفيان الثوري قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة أي شئ ينوي بقراءته وصلاته ؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه»(٣).

وقال قتادة: «ما أكلت الكراث منذ قرأت القرآن»(٤).

الوسيلة الخامسة: استحضار القلب عند قراءته.

لأنه موجه من الله إليك، أوامره، ونواهيه، ونداءاته، وآياته رسائل من الله إليك!

قال ابن مسعود ﭬ: «من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين»(٥).

---

(١) مشكل الآثار للطحاوي (١٧١/١).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٤٤/٤)، وصححه أحمد شاكر.

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١-٩٢).

(٤) فضائل القرآن ومعالمه لأبي عبيد (ص٥٥)، وانظر: الدر المنثور (٢٧٨/١).

(٥) خرّجه أخي أحمد في غاية البيان فقال: صحيح لذاته: أخرجه سعيد بن منصور في السنن (٧/١رقم١) ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣٢/٢رقم١٩٦٠) حدثنا حديج بن معاوية عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود عنه به. وأخرجه مسدد في المسند (١٧/١٣رقم٣١٠٠-المطالب)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (١٥٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣٦/٩رقم٨٦٦٦)، وابن حزم في الإحكام (٤٨٨/٨) من طرق عن شُعْبَةَ عن أبي إِسْحَاقَ عن مُرَّةَ عن عبد اللَّهِ قال: من أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ فإن فيه عَلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ.

وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٩٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢٧/٦رقم٣٠٠٠٩)، وعبد الله بن المبارك في الزهد (٢٨٠رقم٨١٤)، ومن طريقه الفريابي في فضائل القرآن (١٨١رقم٧٨)، وأخرجه النحاس في القطع والإئتناف (٩/١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣٥/٩رقم٨٦٦٤) من طرق عن أبي إِسْحَاقَ عنه به. وإسناده صحيح لذاته. ورواية شعبة عن أبي إسحاق قبل اختلاطه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٥/٧): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

ومعنى:يثور أي: ينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه. انظر: النهاية

=

وقال الحسن بن علي ﷺ: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قراء القرآن ثلاثة أصناف:

فصنف اتخذوه بضاعة يأكلون به.

وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده، واستطالوا به على أهل بلادهم، واستدروا به الولاة كثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثرهم الله.

وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فوكدوا به في محاريبهم، وحنوا به في برانسهم، واستشعروا الخوف، وارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقي الله بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، والله لهذا الضرب في حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر»(٢).

=

لابن الأثير (٢٢٩/١)، ولسان العرب (١١٠/٤) لابن منظور.

(١) التبيان للنووي (٢٨).

(٢) فضائل القرآن ومعالمه لأبي عبيد (ص١٣٨(الشاملة)، أخلاق حملة القرآن (ص٦٥ (الشاملة)، مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص٢٤ (الشاملة)، شعب الإيمان للبيهقي (١٤٥/٦ الشاملة).

المحور الثاني
تزكية النفوس

ويشتمل هذا المحور على النقاط التالية:

١- بيان معنى تزكية النفس.

٢- أهمية تزكية النفس.

٣- أحوال النفس بحسب تزكيتها.

٤- بم تحصل تزكية النفس.

وإليك بيانها:

١- بيان معنى تزكية النفس:

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء يقال: زكا الشيء إذا نما.

وفي الشرع: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ومن البدع والمعاصي؛ وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقًا إلى استعماله في الطاعات(١).

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿گ گ گ گ ں ں ڻ﴾ [التوبة:١٠٣]؛ فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما؛ فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الرغل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع فنما البدن.

فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما وقوى واشتد وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت؛ فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى: ﴿چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک﴾ [النور:٣٠]، فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

---

(١) من كلام ابن كثير في تفسير في أول تفسير سورة فصلت.

قال تعالى: (ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄڄ ڄ ڄ ڃ) [النور:٢١]، ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية فدل على أن التزكى هو باجتناب ذلك.

وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: (ﭙ ﭚ ﭛ ﭜﭝ ﭞ ﭟ ﭠﭡ) [النور:٢٨]، فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلًا يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يطلع عليها كان ذلك أزكى لهم كما أن رد البصر وغضه أزكى لصاحبه.

وقال تعالى: (ﯾ □ □ □ □ □ □ □ □) [الأعلى:١٤-١٥].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام في خطابه لفرعون: (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ) [النازعات:١٨].

وقال تعالى: (ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک) [فصلت:٦-٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدلته وفسقته إذا جعلته كذلك في الخارج أو في الاعتقاد والخبر»[(١)].اهـ

وقد جاء عن السلف في تفسير قوله تعالى: (ڦ ڦ ڄ ڄ ڄڄ ڃ ڃ ڃ)، ما يؤيد هذا المعنى.

قال قتادة: طهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير.

وهذا كقوله تعالى: (ﯾ □ □ □ □ □ □ □ □) [الأعلى:١٤-١٥].

وأما قوله: (ڃ چ چ چ) أي: دسسها أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله تعالى.

المقصود: أن معنى تزكية النفس هو تطهيرها من أدران الشرك والكفر وحوب المعصية والذنب.

وقد قال تعالى: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ) [النجم:٣٢].

فقوله: (ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ): لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا

---

(١) من كلام ابن القيم في إغاثة اللهفان.

قال عقيب ذلك: (ۇ ۆ ۆ ۈ). وهذه كقوله: (ۆ ۈ ۈ ۇ ۇ ۆۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ې ې ۉ ۉ) [النساء:٤٩].

٢- أهمية تزكية النفس.

يدل على أهمية زكاة القلوب وتزكية النفوس الأمور التالية:

١- أن الله T جعل ذلك مقصد بعثة الرسول ﷺ؛ فقد قال تعالى: (ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅﮆ ﮇ ﮈ ﮉ) [البقرة:١٢٩].

وقال تعالى: (ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى) [البقرة:١٥١].

وقال تعالى: (ۋ ې ې ى ى □) [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: (ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ) [الجمعة:٢].

وقد قال ﷺ فيما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**».أخرجه أحمد، وبلفظ: «**إنما بعثت لأتمم صالحي الأخلاق**» عند البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في شعب الإيمان، وبلفظ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» عند البيهقي في السنن الكبرى، وفي مسند الشهاب.

٢- أن الله وصف الذين لا يتبعون الرسل، ويعصون أمره سبحانه بأنه محرومين من هذه التزكية يوم القيامة: (ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ) [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال تعالى: (ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ) [البقرة:١٧٤].

٣- أن الله جعل من حكم التشريع تزكية القلب والنفس، كما في قوله تعالى: (ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚﮛ ﮜ ﮝ ﮞﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ) [البقرة:٢٣٢].

وقوله تعالى: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣﮤ ﮥ ﮦ ﮧ) [التوبة:١٠٣].

وقوله تعالى: (ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽﭾ ﭿ ﮀ ﮁﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ) [النور:٣٠].

٤- وأن في تزكية النفس أمان من خطوات الشيطان، قال تعالى: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭﭮ ﭯ ﭰ ﭱ) [النور:٢١].

٥- أن في تزكية النفس حياة القلب، وسلامته من الفتن والهوى.

جاء في الحديث عن حذيفة عند مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ، قال: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا؛ فلا تضره فتنة ما دامت**

السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه».

٣- أحوال النفس بحسب تزكيتها.

[وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث انفس:

نفس مطمئنة.

ونفس لوامة.

ونفس أمارة.

وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى.

ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: (ﭧ ﭨ ﭩ)، وبقوله تعالى: (ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ)، وبقوله تعالى: (ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ).

والتحقيق: أنها نفس واحدة ولكن لها صفات؛ فتسمى باعتبار كل صفة باسم:

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به، ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به؛ فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه.

ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال تعالى: (□ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □)، فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز.

قضى الله ﷻ قضاء لا مرد له: أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سبله وزايله.

وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضها بسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كما له إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به.

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان:

طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها.

وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية.

مثاله: الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها، ولا قدرة له على دفعها؛ فيسلم لها ويرضى بها، ولا يسخط ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه؛ فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى: (ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [الحديد:٢٢-٢٣].

قال تعالى: (ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ) [التغابن:١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا؛ فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره.

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده: وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثالًا كمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق؛ فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه، وسروره، ولذته، وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه، والإقبال عليه، والشوق إليه، والأنس به.

فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور، والباصر من اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن

يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بـ (ٹ ٹ ٹ ٹ).

وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة المصدقة.

وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله.

وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالى.

وقال مجاهد: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمر فيما هو فاعل بها.

وروى منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت جاشا لأمره وطاعته.

وقال ابن أبي نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلى الله.

وقال أيضا: هي التي أيقنت بلقاء الله.

فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الأصلين: طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل.

النفس اللوامة نوعان:

لوامة ملومة، وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته.

ولوامة غير ملومة، وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده؛ فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللائمين في مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام فهي التي يلومها الله.

وأما النفس الأمارة: فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: (ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ).

وقال تعالى: (ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ).

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □)»[1].

٤- بم تحصل تزكية النفس.

وتحصل هذه التزكية بمعرفة الله، ومعرفة أمره ونهيه، وحمل النفس على طاعة الله ومعرفته، وتعظيم شرعه، والعمل الصالح.

---

(١) من كلام ابن القيم في إغاثة اللهفان.

فسبيل التزكية هو ما يقوم عليه الدين وهما أصلان:

* ألا نعبد إلا الله.

* وألا نعبد الله إلا بما شرع.

ويوضح ذلك: أن التزكية طهارة النفس من درن الشرك والإلحاد، وحوب المعصية، وذلك طريق الفلاح؛ و (ٱ ٻ ٻ) [المؤمنون:١].

و(ﯾ   ) [الأعلى:١٤].

و(ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ) [الشمس:٩].

وطريق الفلاح إنما هو بتقوى الله تعالى: (ﯼ ﯽ ﯾ   ) [الطلاق:٥].

المحور الثالث

فوائد تزكية النفوس على العبد

العبد إذ زكى نفسه بطاعة ربه، نال سعادة الدنيا والآخرة.

ومن هذه الفوائد التي يحصلها المسلم بتزكية نفسه بطاعته لربه، الأمور التالية:

الأولى: نيل رضوان الله في الدنيا والآخرة:

(□ □ □ □ ى ى ې ې □) [طه:٧٤-٧٦].

الثانية: حصول الفلاح، والسلامة من الحوب والتقصير:

قال تعالى: (ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ) [الشمس:٩]. أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب.

الثالثة: حياة القلب:

قال الله تعالى: (ےے ۓ ۓ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [الحديد:١٦-١٧].

فالله يحيي القلوب بتزكيتها بالطاعة كما تحي الأرض بالمطر، وبالاستجابة للرسول ﷺ بطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، تحيا النفوس: (ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ېې ې ې □ □ □ □ □ □ □ □ □) [الأنفال:٢٤].

الرابعة: الحياة حياة طيبة:

قال تعالى: (ﮪ ے ے ۓ ۓ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴۋ ۋ ۅ ۅ ۉۉ ې ې ې ې) [التوبة:٧٢].

وقال تعالى: (ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ) [النحل:٩٧].

الخامسة: النجاة من العذاب الأليم:

قال تعالى: (ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮫ ﮬﮭ ﮮ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ ى ى ې ې □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □□ □) [الصف:١٠-١٤]. فلا يأت يحمل وزرًا يوم القيامة.

قال تعالى: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پپ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ) [طه:٩٩-١٠١].

السادسة: السلامة من المعيشة الضنك في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯾ ﯿ ﯽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ) [طه:١٢٤-١٢٧].

قال الشنقيطي: «ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبيﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: (ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ) [الفرقان:٣٠]».اهـ

السابعة: يقوى وازع الخير لديه وداعيه:

فقد جاء في الحديث عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله قال: قال رسول اللهﷺ: «**إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما الشيطان فيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق؛ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، ثم قرأ: (ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ) [البقرة:٢٦٨].

الثامنة: أنه بتزكيته نفسه بكون من المتقين، وينال ما ورد في فضلهم:

قال تعالى: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ) [الأنفال:٢٩].

وقال تعالى: (ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ) [يوسف:٩٠].

وقال تعالى: (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ) [الطلاق:٢].

وقال تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ □) [الطلاق:٤].

وقال تعالى: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □) [الطلاق:٥].

التاسعة: أنه يحصل هداية القرآن العظيم:

قال -تبارك وتعالى-: (ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ) [الإسراء:٩].

العاشرة: يسلم من البدع والضلالات:

وقد وصف رسول الله أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فلا يتدبرونه ولا يتأثرون بما فيه؛ فدل ذلك أن من قرأ وتدبر القرآن حصل السلامة من طريق هؤلاء.

عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ ﭬ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ** -وَلَمْ: يَقُلْ مِنْهَا- **قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ أَوْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَى سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ إِلَى رِصَافِهِ فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَةِ هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنْ الدَّمِ شَيْءٌ**» أخرجه الشيخان.

الخاتمة

ولنختم بمثال فيه تدبر لآيات من القرآن الكريم، واستجلاء ما فيها من المعاني والعبر والأحكام والآداب، التي بها تزكو النفوس، وبها يظهر أثر التدبر في ذلك؛ وهو ما ذكره ابن قيم الجوزية مثالًا للتدبر في آيات القرآن الكريم، لما ذكر زاد المهاجر إلى ربه بطاعته سبحانه وتجنب مناهيه، وطريقة ذلك قال:

«ورأس الأمر وعموده في ذلك **إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله، حيث تستولي على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القران مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه وصار له التصرف وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنًا** وهو يباري الريح: (□ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □) [النمل:٨٨].

فإن قلت: انك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القران وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه!

قلت: سأضرب لك أمثالًا تحتذي عليها وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد:

قال الله تعالى: (ۆ ۆ ۈ ۈ ۇ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ېى ې □□ ى ى يه □□ □) [الذاريات:٢٤-٣٠].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار:

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم.

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها.

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علمًا عظيمًا من أعلام النبوة.

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة.

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه.

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة.

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

قال الله تعالى: (ۆ ۈ ۇ ۉ ۋ ۊ).

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام وليس المراد بها حقيقة الاستفهام؛ ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع؛ فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له، صدَّر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به؛ فتارة يصدره بـ (ألا).

وتارة يصدره بـ (هل) فيقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت، إما مذكرًا به، وإما واعظًا له مخوفًا، وإما منبهًا على عظمة ما يخبر به، وإما مقررًا له.

فقوله تعالى: (ى ى)، و(ڃ ڃ ڃ ڃ)، و(ٹ ٹ ٹ ٹ)، و(ۆ ۈ ۇ ۉ ۋ ۊ) متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته ففيه أمر أخر؛ وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا من قبلنا؟!

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام وتأمل عظم موقعة من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: (ۉۋۊ) متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في (ۋ) قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: (ٹ ٹ ٹ ڤ)؛ وهو متضمن أيضًا لتعظيم خليله ومدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافًا له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله: (ۅ ېې ې ې) متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلامًا. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم.

ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث،

فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن.

ثم قال: (□ □) وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش، وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول: «**وما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا**».

الثاني: قوله: (□ □) فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر: (نكرهم) ولا ريب أن قوله: (□) ألطف من أن يقول: أنكرتكم.

وقوله: (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) متضمن وجوهًا من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف:

منها: قوله (□ □ □) والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه. فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالى: (□ □) مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

وقوله: (□ □ □) يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه؛ فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين، فإنهم يعجبون به فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: (□) متضمن المدح وآدبًا آخر وهو: إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: (□ □) فيه مدح وأدب آخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: (ألا تأكلون) وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام كلوا تقدموا ونحو هذا.

وقوله: (□ □ □□) لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون معهم شر؛ فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به.

فلما علموا منه ذلك قالوا: (ى يى □ □ □) وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: (□ □) لا يولد لمثلي فأنى لي بالولد.

وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر، وكان بكره وأول ولده، وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)، وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: (□ □ □ □ □ □) فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها؛ إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: (□ □) فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز عقيم واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: (□ □ □ □□) متضمن لإثبات صفة القول له، وقوله: (□ □ □ □) متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر؛ فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال؛ فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة، والعدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن الإرسال، وإثبات الثواب والعقاب.

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا وسدى وباطلًا؛ فحينئذٍ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب؛ ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة، ووقوعه أخرى؛ فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القران وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس.

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا؛ لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القران من

الشقاء والهدى، وسرعة الإنصاف وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك، وليس هذا موضع التفصيل.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته، واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق، وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عيانًا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

ثم قال تعالى: (ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤڤ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ) ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام؛ فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالى: (ڤ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ) لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجيين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا وليست من المؤمنين الناجيين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمة ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثناء الأعم من الأخص وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟!

وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله تعالى: (ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ) فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في

هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب الله تعالى.

كما قال الله تعالى في موضع آخر: (ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ).

وقال تعالى: (□ □ □) فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة.

و أما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا: إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء» [1].اهـ

هذا ما تيسر لي في هذا الموضوع جمعته وكتبته، سائلًا الله أن يرزقني القبول في الدنيا والآخرة، وأن يجعلني هاديًا مهديًّا، وصل اللهم على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

---

(١) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه) /لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (ابن قيم الجوزية (ت٧٥٩هـ)/نشر: مكتبة المدني جدة/تحقيق: د. محمد جميل غازي/(ص٦٣-٧٢).